إلى الوراء سر

طالعت بدهشة خبر التنظيم الشيوعى الذى قامت بضبطه أجهزة الأمن بالجيزة.. وأكثره من الطلبة وعلى رأسهم أستاذ جامعى.. وآخر مساعد أستاذ بكلية الزراعة.

والسؤال الذى تبادر إلى ذهنى.. هو: ماذا يريد هؤلاء الرفاق الجدد؟

إن لب الشيوعية هو ملكية الدولة لوسائل الإنتاج والتأميم والقطاع العام، والخراب العام الذى جربناه ورأيناه فى إنتاج هابط، وشركات خاسرة، ومؤسسات مفلسة، ومكاتب مكدسة بالموظفين العاطلين، وبيروقراطية وتخلف.

وجمال عبد الناصر لم يترك للرفاق الجدد شيئًا، فقد نزع الملكيات، وأمم الشركات، وحقق الاقتصاد الشمولى، ونفذ الأبجدية الماركسية، وخلف تركة من الإحباط العام لا تشجع أحدًا على تقليده.

وتحولت مصر إلى مسرح للتجارب والهياكل التنظيمية.. هيئة

التحرير، ثم الاتحاد القومى، ثم الاتحاد الاشتراكى، ثم الطليعة الاشتراكية، يبنى الواحدة ثم ما يلبث أن يهدمها.. وكل هذه التجارب كانت تجارب على حساب مصر وعلى حساب جيل المعاناة الذى يسوقه إلى السجون، ثم يعود فيخرجه منها، ثم يعود فيسجنه مع تقلبات الهوى والأحداث.

وأخيرًا انتهى الرجل وانتهت سياسته إلى الهزيمة والخراب الاقتصادى، وجميع تجاربه وأفكاره أخذت حظها من الامتحان.. وكان على السادات أن يبدأ من الصفر، وكان على حسنى مبارك أن يبدأ من مشاكل لا تنتهى.

فماذا عند الرفاق الجدد. وما هى شيوعيتهم القادمة بإذن الله ؟

إنهم يبيعون القطاع العام فى إنجلترا وفرنسا..

وروسيا التى أخذنا عنها فكرة القطاع العام وملكية الدولة لوسائل الإنتاج تراجعت عن أفكارها وأباحت القطاع الخاص، والصين سمعنا من داخلها من يقول إن الماركسية فكر رجعى معوق، ورأيناهم يقومون بتفكيك الكوميونات الكبيرة إلى حيازات صغيرة، ويطاردون عصابة ماوتسى تونج، ويدينون الثورة الثقافية (التى كنا نتغنى بها عندنا) ويلقون بزعمائها فى السجون.

وتراجع الفكر الماركسى فى العالم كله، وانحسر المد الماركسى على جميع الشطئان.. وشيوخ الملة الماركسية أمثال جارودى نبذوا

الملة واعتنقوا الإسلام، ومن قبل جارودى نبذ الماركسية مفكرون ماركسيون كثيرون، أمثال أندريه جيد، وريتشارد رايت، ولويس فيشر، وستيفن سبندر، واجنازيو سيلونى، وغيرهم وغيرهم.. وارتفعت رايات العصيان والتمرد فى المجر وتشيكسلوفاكيا، وأخيرًا فى بولندا، وأضرب عمال نقابة التضامن فى جدانسك، وطالبوا بإعادة النظر فى كل شىء للخروج من مأزق الفقر والتسول الذى قادتهم إليه التبعية للسوفيت..

فماذا يريد الرفاق الجدد إحياءه من الجثة الماركسية التى تعفنت قبل الأوان فى تابوت التاريخ؟!

لم يبق من الماركسية إلا التهييج والتحريض والتخريب وإثارة الأحقاد وإشعال الصراع الطبقى.

يقول تروتسكى وهو أحد أنبياء الاشتراكية:

«إن بين شكوى الفرد وطموحه وضعًا نفسيًا فيه الكثير من كوامن الحقد.. والحقد هو أسهل معاول الصراع الطبقى».

هذا هو كلام تروتسكى، وهو اعتراف صريح بشرعية الحقد عند الشيوعيين، وشرعية استخدامه لقلب المجتمع.

ألم يقل السادات فى أحد خطبه التاريخية:

«لقد ترك لى عبد الناصر تركة من الحقد لا أجد لها إلى الآن حلًا».

إن التأميم الذى انتزع المصانع من يد خمسة أو ستة رأسماليين مستغلين قد سلمها إلى مائة ألف لص فى المؤسسات والجمعيات التعاونية ينهبونها.. مائة ألف لص لا علم لهم بالحرفة، وهم لا يبتكرون ولا يبدعون، ولا يعملون ولا يعطون، وإنما كل همهم هو التسابق على النهب والسلب.

والعامل وقد رأى أباطرة المال وقياصرة الأرض يعرون عن أملاكهم بكل سهولة ويطردون.. أصبح يشعر بأن هيبة كل كبير قد سقطت نهائيًا، فهو يتحول بغريزته - دون أن يدرى - إلى من هو فوقه، يحاول أن يسحب منه الكرسى ليقفز مكانه.. والحقد الطبقى بين العامل وصاحب العمل، وبين الفلاح وصاحب الأرض ينتشر كما تنتشر النار فى الهشيم ليتحول إلى منطق يحكم المجتمع كله، فإذا بكل صغير ينظر فى تربص إلى كل كبير، ويتمزق الكل إلى جبهات متقاتلة متباغضة.. سكان وأصحاب عمارات، محررين ورؤساء تحرير، عساكر وضباط، موظفين ومديرين، خدام ومخدومين، كل مرءوس يتحين الفرصة ليطعن رئيسه ويحل محله، بحق أو بغير حق..

والجالسون على كراسى الحكم يضربون كتل المجتمع بعضها ببعض، ويهددون كل فئة بالأخرى، ويشغلون الكل بالصراع الطبقى المدمر ليسلم لهم مربع السلطة الذى يجلسون عليه، يديرون منه عمليات المذابح، ويملئون المعتقلات باسم الحرية

والتقدمية ومصلحة الجماهير، ويخفون مخططهم الدموى فى ضوضاء المسيرات الشبابية، وطنين الأغانى الشعبية، وضجيج الإذاعات وصراخ الشعارات فى محاولة مستمرة لإثارة غريزة القطيع، وتحشيد الجماهير فى مواجهة أى معارضة.

ثم المثقفون يضربون بالعمال، والملاك يضربون بالفلاحين، والأغنياء بالفقراء، والرءوس الكبيرة بالرءوس الصغيرة.. ليصفو الأمر فى النهاية لفئة وطبقة جديدة، تمتلك وتحكم، وتستبد وتتسلط باسم الحزب والنظرية، وتستمتع بما لم يستمتع به رأسمالى أو إقطاعى.

وهذا هو الوجه القبيح الذى تبقى من الماركسية.

ألم نقرأ جميعًا ما طلع علينا به مؤتمر الأحزاب الشيوعية لعام ١٩٧٦ وكيف تنازلوا عن كل المبادئ الماركسية فى سبيل الفوز بكراسى الحكم.

تقول قراراتهم بكل صراحة:

حاولوا الوصول إلى الحكم بأى سبيل..

وإذا وقفت فى سبيلكم مبادئنا الخاصة بديكتاتورية البروليتاريا فدوسوها، وإن احتج عليكم القوميون فصالحوهم، وقولوا لهم نحن قوميون مثلكم.

اركبوا كل موجة لتصلوا إلى الحكم.

إعلان وصولية صريح، ومرسوم ميكيافيللية موقع عليه من كهنة المذهب، فماذا يريد الرفاق الجدد. طبعة ١٩٨٦؟

إننا مازلنا نذكر ما فعله الإخوة الأعداء فى اليمن الجنوبية الماركسية، وكيف قتل بعضهم بعضًا فى لعبة الكراسى، وكيف هدموا مصانعهم وأحرقوا بلادهم بأيديهم.

وما بين اليسار البعثى السورى واليسار البعثى العراقى معلوم.. وما بين الأجنحة اليسارية فى المنظمات الفلسطينية (وهى تواجه عدوًّا واحدًا مشتركًا) معلوم..

وحيثما تحرك اليسار فى بلد تحرك معه الخراب وسال الدم.. فى أنجولا، فى البرتغال، فى أسبانيا، فى نيجيريا، فى شيلى، فى السلفادور، فى الحبشة.

وكل يسار نجد على يساره يسارًا يزايد عليه، ولا نهاية للمذابح والتصفيات والقتل.

ولا نظرية هناك.. وإنما تحريض شيطانى للأخ على أخيه، وللابن على أبيه، بحجة أن هناك من يملك أكثر.

ولم يكن ماركس علميًّا حينما انتقى من التاريخ بضع مراحل على هواه ولفق منها مذهبًا طبقه اعتسافًا على التاريخ كله، وأسقط مراحل كاملة من التحول التاريخى، لأنها تناقض مذهبه.

وإلا فما قوله عن التحول الإسلامى؟!

لقد كان الإسلام انقلابًا حضاريًا هائلاً، فجاء بالشورى، وبالديموقراطية، وبحقوق الإنسان، ولم يأت بهذا نتيجة انقلاب مناظر فى نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى قريش، ولا جاء نتيجة تغير البنية المادية التحتية فى مكة كما يدعى الرفاق المتفلسفون، بل جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة.. هادمًا بذلك الفكر الماركسى من أساسه.

ثم إن فكرة العامل الاقتصادى الواحد الذى جعل منه ماركس إلهًا تصدر عنه الأشياء وسببًا وَحِيدًا تتداعى بفعله كل التغيرات التاريخية.. هذه الفكرة سقطت علميًا والرأى الآن أنه لا يوجد سبب واحد مستقل وفعال، وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر فى بعضها تأثيرات متقابلة، فالعامل الجوهرى اليوم يمكن أن يكون عاملاً ثانويًا فى الغد.. والعامل الاقتصادى بهذا لا يصلح لأن يكون إلهًا تصدر عنه الأشياء.

ثم إن كلامه عن طهارة البروليتاريا، ونقاء البروليتاريا، وكأنها جنس آخر قادم من المريخ، أو شعب الله المختار، هو كلام مضحك وغير علمى.

ثم من أين جاءوا بأن المادة سبقت الفكر فى مبدأ الكون، ومَنْ كان منهم حاضرًا فى مبدأ الكون ليدعى أن شهادته

علمية؟! أليس هذا هو الشطح الغيبى الذى يحاربونه هم أنفسهم؟!

إن ماركس لم يقدم علمًا.. بل قدم ظنونًا، واصطنع تلفيقًا بهدف التحريض والتهييج لقلب النظم الموجودة.

وليس فى الدول الشيوعية دولة واحدة يختارها الإنسان مهجرًا..

اعطونى اسمًا واحدا لرجل قفز على سور برلين من الغرب إلى الشرق.. أو فر من إنجلترا ولجأ إلى موسكو، أو هرب من أمريكا إلى الصين..

وما زال هناك الفقراء والأغنياء حتى كتابة هذه السطور..

وحتى هذه اللحظة هناك من يركب بسكليتة وهناك من يركب عربات الزيم الفاخرة، وهناك من يمشى على قدميه فى موسكو نفسها.. وفى بكين.. وفى فيتنام.

وليس صحيحًا أن الشيوعية هى الطريق الوحيد للتقدم.

فالعمل المخلص الجاد يرتفع بالأفراد وبالأمم على أى منهج.. واليابان وصلت إلى مقاعد السيادة والصدارة فى العالم بمنهج رأسمالى.. والعملة اليابانية اليوم تركب على أكتاف الروبل والدولار والاسترلينى ومثل اليابان ألمانيا الغربية وكوريا الجنوبية وتايوان.. فى حين أن المعسكر الشرقى كله

غارق فى البيروقراطية والتخلف والأزمات، وكوبا وبولندة والمجر وألمانيا الشرقية نسخ مكررة من المشاكل الاقتصادية، والقروض والمعونات والتسول السياسى.

ولم نسمع عن فائض الزبد وفائض القمح إلا فى المعسكر الغربى..

الدنيا تغيرت..

ولم تعد المشكلة.. هى يمين أو يسار.. وإنما المشكلة هى هل تعمل أو لا تعمل.. وما حظك من العلم.. وما حظك من الإخلاص والجدية والانتماء.. وما حظك من الانتظام والمثابرة والأخذ بأسباب العصر؟!

والاقتصاد الحر والمناخ الديمقراطى هما المدخل إلى القرن الواحد والعشرين.. أما دول القمع البوليسى، والاقتصاد الشمولى، ومجتمعات الطبل والزمر والشعارات فمكانها فى مؤخرة الرَّكب.. ومصيرها أن تظل تتصارع وتقتتل فى داخلها حتى تفنى غير مأسوف عليها..

فماذا يريد الرفاق الجدد..؟!

إن العمال فى بولندة رفضوا الشيوعية..

والفلاحون فى الصين ضاقوا بالعمل فى الكوميونات الكبيرة..

والطلبة فى شنغهاى ساروا بالألوف فى مظاهرات ينادون

بالديمقراطية.. أول مظاهرة فى معسكر شيوعى نقلتها البرقيات فى شتى أنحاء العالم..

فماذا يريد حضرة أستاذ الفلسفة الذى يحرض شبابنا ويستغل معاناته وأوجاعه ليقلب نظام الحكم؟ أين الفلسفة عند أستاذ الفلسفة؟

إن طبول المقالات التى تملأ الصحف لن تستطيع أن تحول السواد إلى بياض، ولا الهزيمة إلى انتصار، فالواقع أقوى من حروف المطابع التى تنتهى فى المساء إلى سلال المهملات.. ثم لا يصح إلا الصحيح برغم كل الطبول والمجامر والمباخر.

ألم يكتبوا عن المجاهدين الأفغان فيسمونهم المتمردين.. هم أنفسهم الذين كانوا يقولون عن المجاهدين الفيتناميين أبطالاً الآن لا يرون فى المجاهد الأفغانى الذى يحاول أن يحرر أرضه.. بطلاً.. بل متمردًا.. لمجرد أنه يحارب السوفيت.

وهم مسلمون ويقرءون عن الغازات السامة والنابالم والقنابل الحارقة التى تقتل وتدمر وتفنى المسلمين الأبرياء العزل فلا تتحرك فيهم نخوة أو شهامة، وإنما يكتبون بلغة الأجانب والعملاء، فيسمون المسلم المكافح الذى يقاتل ليحرر أرضه متمردًا.. وهذه مانشتاتهم فى جريدة حزب التجمع.

لا أكتب هذا الكلام تحيزًا لليمين الأمريكى ضد اليسار

السوفيتى.. فالمخابرات الأمريكية والعسكرية الأمريكية أشد خطرًا وأخفى خططًا وأكثر تآمرًا على الدول النامية الفقيرة.. والبلاء يحاصرنا من الغرب كما يحاصرنا من الشرق.

ولا يعنى كلامى أن نعود إلى الإقطاع أو إلى زمن فاروق وزمان البشوات، فالتاريخ لا يعود إلى الوراء، والزمن لا يلوى عنانه إلى الماضى، وإنما هو يمضى قدمًا إلى المستقبل، وهو يأخذ معه حصاد الماضى وخبرة الحاضر ليصنع بهما المستقبل.

كفانا صراعًا طبقيًّا يطحن أجيالنا بين فكين من الحقد على مدى ٣٤ سنة من عمر الثورة، فلا يخرج من بين فكيه إلا الأضغان والسخائم، حتى الفن - مسرحًا وسينما ومسلسلات تليفزيونية - أصبح لا يخرج من طاحونته إلا فيضًا من الأحقاد بين أغنياء وفقراء، وبين باشوات لا وجود لهم وفلاحين أسطوريين لا يعيشون إلا فى خيال المؤلف.

على المؤلفين الجدد أن يخرجوا رؤوسهم من دوامة الستينيات ويأخذوا نفسًا حرًّا عميقًا، وينظروا إلى المتغيرات والمستجدات الكثيرة حولهم، ويتمثلوا الروح الجديدة، والآفاق الجديدة الرحبة.. ويقرءوا كثيرًا.. ويعلموا أن كارل ماركس قد مات وشبع موتًا هو وأفكاره، وأن جوركى لم يعد هو مؤلف هذا العصر، وأن تيارات أدبية جديدة قد دخلت الساحة.

نقول لرفاق اليوم: إن الشعارات التى يرفعونها ويتغنون بها قد انتهت، وإن الموقف اليوم يطرح تناقضات جديدة تحتاج إلى فكر جديد ومنهج جديد، وإنهم مجرد حفريات وكائنات متحفية ونباتات متحجرة.. وإنهم لن يجدوا من يمشى وراءهم حينما ينادون.. إلى الوراء سر.. فلا شىء فى الدنيا يسير إلى الوراء غيرهم.. وإنما الدنيا تندفع نحو المستقبل.